مجلة الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2023/01/04م
تاريخ القبول: 2023/02/02م

الخوف من الفناء في الشعر الاحتفالي الأندلسي
مقاربة لنصوص العمارة في العهد النصري

د. صالح عيظة الزهراني*
salalzahrani@ksu.edu.sa

ملخص

يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على ظاهرة مشاعرية مثيرة للاهتمام تنساب خفية في الشعر الأندلسي الاحتفالي، خاصة في نصوص العمارة الأندلسية، وبالتحديد في قصر الحمراء بغرناطة. وقد قسم إلى مقدمة وتوطئة عن المشاعر أشرت فيها إلى بعض القضايا كعلاقة الشعور باللون والسياق الثقافي والاجتماعي. ومبحثين، كان موضوع المبحث الأول جذور الخوف عند الأندلسيين، وموضوع المبحث الثاني تمثيلات الخوف في النص الشعري الاحتفالي. ثم أهم النتائج، ومنها: أن ثمة ظاهرة عميقة تستوطن الشعر الأندلسي في المرحلة الأخيرة بخفاء تام. وتتمثل في دفقة من مشاعر الخوف والتشاؤم والقلق تختبئ وراء مظاهر شكلية من الاحتفاء والبهجة والطمأنينة. وأن هذه المخاوف المبطنة، ترجع جذورها إلى تراث القرون السابقة مع السقوط المتعاقب للمدن الأندلسية في أيدي المسيحيين. والكم اللافت من المؤامرات الداخلية التي عصفت ببلاط قصر الحمراء. ولقد كان دور الشعر حاسمًا في كشف هذه المشاعر الخفية وتقديمها.

الكلمات المفتاحية: الخوف، الفناء، الأدب الأندلسي، العمارة الأندلسية.

* أستاذ الأدب الأندلسي المشارك - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: الزهراني، صالح عيظة، الخوف من الفناء في الشعر الاحتفالي الأندلسي - مقاربة لنصوص العمارة في العهد النصري، مجلة الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، كلية الآداب، جامعة ذمار، اليمن، مج5، ع1، 2023: 325-352.

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

OPEN ACCESS
Received: 14-01-2023
Accepted: 02-02-2023

مجلة الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

Fear of Annihilation in Andalusi Festive Poetry: A Study of Architecture Texts during Nasrid Dynasty

Dr. Saleh Aidha Al-Zaharani*

salalzahrani@ksu.edu.sa

Abstract:

The study aims to shed light on an implicit invisible interesting emotional phenomenon characterizing Andalusian festive poetry, with particular reference to texts of Andalusian architecture as featured in Alhamra Palace of Granada. The paper is divided into an introduction and two sections. The introduction deals with emotions, addressing the relationship between feeling and color and social and cultural context. The first section reviews the roots of fear among the Andalusians. The second section focuses on fear manifestations in festive poetic works. The study revealed that Andalusian poetry was replete with a deep sense of invisible flow of fear, pessimism and unrest embedded within the festive joyful f textual form and structure. Such hidden apprehensions were traced back previous centuries' heritage marked with the successive fall of the Andalusian cities in the hands of the Christians and the internal plots and conspiracies inside Alhamra Palace. The study concluded that poetry played an instrumental role decisive depicting and representing such hidden feelings.

Keywords: Fear, Annihilation, Andalusian literature, Andalusian architecture.

*Associate Professor of Andalusian Literature, Department of Arabic Language and Literature , Faculty of Humanities and Social Sciences, King Saud University, Saudi Arabia.

Cite this article as: Al-Zaharani, Saleh Aidha, Fear of Annihilation in Andalusi Festive Poetry: A Study of Architecture Texts during Nasrid Dynasty, Journal of Arts for linguistics & literary Studies, Faculty of Arts, Thamar University, Yemen, V 5, I 1 , 2023: 325- 352.

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

مقدمة:

لطالما تعامل الباحثون مع الشعر الاحتفالي الأندلسي، ومنه نصوص العمارة وقصر الحمراء على وجه الخصوص؛ بوصفه انعكاسًا لمشاعر البهجة والانبساط التي نسبت للأندلسيين بشيء من المبالغة، مردها الصورة الذهنية التي مثلت الأندلس بوصفه فضاء للكأس والطبيعة والجارية الحسناء وهذه هي إشكالية البحث والباعث الأول له.

فهذه الدراسة تحاول تقويض هذا المعتقد بلفت الانتباه لمشاعر نقيضة كامنة في نفوس الأندلسيين وعبر عنها الشعراء في قصائدهم الاحتفالية.

هذه الاحتفالية البادية في هذا النوع من الشعر تخفي وراءها شعورًا غائرًا بالقلق والخوف من الانهيار والتلاشي، يغذيه واقع مخيف من الضعف والتقزم السياسي في مواجهة الاندفاع المسيحي الذي يمضي بخطى ثابتة نحو استخلاص الأراضي الأندلسية من ذويها عنوة.

وتأتي الدراسة الحالية لتسائل ثيمة الخوف المستكنة هذه وإماطة اللثام عن دوافعها وتمثيلاتها في النص الشعري، وهذا هو الجديد الذي تأمل الدراسة تقديمه للقارئ. ولأجل هذه الغاية، ستتكئ الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي لدراسة بواعث هذا الشعور المستتر وتمثيلاته في النص الشعري، وستستعين بالسياقات التاريخية والثقافية والنفسية، وبالمعطيات النصية للكشف عن هذا المخبوء الذي فرضه اللاوعي على الشاعر فرضًا. وعلى حد علمي، لا توجد دراسة سابقة التفتت لهذه المفارقة عبر نصوص العمارة تحديدًا وقصر الحمراء على نحو أخص، ما قد يمنح هذه الدراسة أهمية بشكل أو بآخر.

وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة حول الموضوع وأهميته ومنهجه والدراسات السابقة، ثم توطئة يسيرة عن المشاعر أشرت فيها لبعض القضايا كعلاقة الشعور باللون وبالسياق الثقافي والاجتماعي. أما صلب الدراسة فجاء في مبحثين أساسيين: المبحث الأول: جذور الخوف عند الأندلسيين، ويعنى ببواعث هذا الشعور كتراكم أخطاء الماضي ومكائد البلاط؛ والمبحث الثاني: تمثيلات الخوف في النص الشعري الاحتفالي كالنزعة إلى الخلود والديمومة، والاستعانة بالقوى السماوية، والتمائم والتعويذات. ثم تنتهي الدراسة بخاتمة تحوي أهم النتائج، تليها قائمة بالمصادر والمراجع.

توطئة:

ليس من غاية هذه الدراسة مناقشة ماهية المشاعر، أو مقاربة متصورات الباحثين حيال مفهوم الخوف مثلًا، فالمسألة أعقد وأعمق من أن تتناول في عجالة كهذه. ومع ذلك، فإن ملامسة طفيفة للموضوع قد تكون ضرورية بالقدر الذي يمنح القارئ مهادًا أو مدخلًا يلج منه على نحو منطقي إلى الدرس.

إن واحدة من أكثر الأفكار إثارة للانتباه هي أن المشاعر لا تقف على كونها مجرد ردات فعل على ما يجري حول الإنسان، بل هي تعبير أمين عن تجربتها[1]. وعلى هذا يمكن القول بأن المشاعر -على وجه عام- هي نتيجة لمقدمات فردية أو جماعية تحدث داخل نظام اجتماعي وثقافي معين هي -ببساطة- تلك التجربة.

وفي سياق قريب، يلتفت باحثون إلى المعنى الحركي للأصل اللاتيني لمصطلح المشاعر[2]. هذا الالتفات يمنح انطباعًا مباشرًا عن الديناميكية الكامنة في طبيعة العواطف بوصفها كينونة حية تنمو وتستجيب لما حولها من أنظمة ثقافية واجتماعية، وهي أقرب إلى أن تلحق بالجوانب الثقافية عمومًا لتفاعلها المباشر معها، أكثر من اعتبارها نتاجًا بيولوجيًا أو جينيًا. وعليه، يتعذر تفسير المشاعر دون اللجوء لسياقاتها الثقافية والاجتماعية، ما يعني عبث المحاولة لاستباط تعريف كوني للمشاعر الإنسانية على اختلاف الثقافات والأعراق.

ومن صور الانتباه إلى العلاقة بين السياق الثقافي والمشاعر، ما يقرره ويليام ريدي William Reddy وهو يربط الألوان بالمشاعر[3]. ولا شك أن هذا النوع من الارتباط مثير للانتباه، ويلعب السياق الثقافي دورًا مهمًا فيه من حيث هو صانع الصلة بين اللون ودلالاته الشعورية، وهو ما يفسر تباين استجابة الناس نحو الألوان من ثقافة لأخرى، وإن صح أن بعض الألوان تثير مشاعر متشابهة في غير واحد من الثقافات بالرغم من اختلافها؛ فلا يصح أن يكون هذا حكمًا عامًا على الإطلاق.

ومما يمكن أن يقفز إلى الذهن ونحن بصدد الفكرة في سياقها الأندلسي، دلالة اللون الأحمر مشاعريًا. فمن المعلوم أن هذا اللون كان شعارًا لبني الأحمر الغرناطيين، وارتبط بقصر الحمراء وديوان الإنشاء ورايات الجيش وغير ذلك.

وقد حظي في الذاكرة الأندلسية بازدواجية مثيرة للاهتمام؛ فمن جهة هو علامة على الجمال ويثير في النفس مشاعر (الحب، الموسيقى، العبق، الطبيعة...)، ومن ناحية أخرى، يطوي شيئًا من إشارات القبح المثيرة للخوف والاشمئزاز (الدم، المؤامرات، التصفيات...). هذه الفكرة نموذج ملهم لدراستنا وباعث مهم لها من جهة انصراف الذهن حين يعرض للحديث عن الأندلس.

إنه فضاء للبهجة والسعادة والطمأنينة، غافلين عما يمكن أن يندس في أثناء ذلك من مشاعر القلق والخوف والاضطراب، التي -على سلبيتها وقسوتها- ساهمت في إحداث حالة من التوفر العبقري في المحيط الأندلسي ظهر أثره في هيئة إبداع شعري وفني.

ومن التساؤلات المهمة في مقاربة المشاعر عمومًا، ما أثاره بعض الباحثين عن موقعها من الإنسان، أو بمعنى آخر مصدر نشأتها وتشكلها[4]. وجوهرية هذا السؤال تكمن في أن الإجابة عنه يمكنها تعميق فهم المشاعر، ومن ثم السيطرة عليها وتطويرها. فهل المشاعر موجودة في القلب، أو في الدماغ، أو في البطن؟ وهل هي ثابتة في مستقرها أو يمكنها الانتقال من عضو إلى آخر؟ وهل هي جسدية أو روحية بحتة؟ ومع الاعتراف بأهمية هذه الأسئلة، لا تعد -في رأيي- بإعطاء إجابات محددة ومقنعة.

ليس الإنسان سوى مجموعة من المشاعر المتناقضة والمعقدة الناجمة عن تراكمات داخلية تشكلت على مر السنين. هذه المشاعر قد تظهر في شكل سلوكيات تستجيب للمحيط الذي يكتنف الإنسان، استجابة لا تؤطر دائمًا بالوعي البشري أو العقل الواعي. إن دور العقل الباطن أو اللاواعي حاسم في إحداث استجاباتنا وتوجيه سلوكنا وقراراتنا، ولعل مكمن خطورته في عدم معرفتنا بوجوده أو نقص إدراكنا لتأثيره وآلية عمله. هذه القوة الخفية هي نتاج برمجة معقدة، وفي مقدورها أن تكون قوة مدمرة إذا لم يمنحها الفرد اهتمامه ليتفهمها، ومن ثم يسيطر عليها.

ومن هذه المشاعر التي يمكنها التسلل إلى العقل الباطن شعور الخوف، وهو من السلبية بالقدر الذي يمكنه أن يترك أثرًا في سلوك الإنسان ونتاجه دون أن يكون هذا الإنسان على وعي حقيقي به. وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن هذا الخوف المستكن في اللاوعي الفردي

والجمعي للإنسان الأندلسي، ممثلًا بالشعر الذي بدا ظاهريًا في حالة من الطمأنينة والسعادة وهو يصف الدور والقصور، دون أن يدرك ما تسلل في أثناء أبياته من خوف عميق دون وعي.

وتأكيدًا على مسؤولية السياق في إحداث هذا الشعور؛ يصر علم النفس على دور المؤثر الخارجي في حدوثه، إذ إن الكائن الحي ليس له دوافع فطرية تدفعه للخوف[5].

ولأن حديثنا عن الشعر الأندلسي ونقوش العمارة الأندلسية تحديدًا؛ سيكون قصر الحمراء نموذجنا الذي تقوم عليه المقاربة، بوصفه ملخصًا ماثلًا لحضارة الأندلس، يمكن فيه تلمس آثار هذا الشعور الكامن لدى الأندلسيين عامة، والغرناطيين على وجه الخصوص.

قصر الحمراء والخوف: الجذور والتمثيلات

ظروف التأسيس:

من المعلوم أن قصر الحمراء شيد في ظروف استثنائية، في وقت كان فيه الوجود العربي الإسلامي في الأندلس مهددًا، وكانت مقاليد السيطرة بيد المسيحيين مقابل ما اتسم به الوضع الأندلسي من الضعف والهشاشة. في ظل هذه الظروف لم يكن لمؤسس دولة بني الأحمر محمد بن يوسف بن نصر، خيار أفضل من التحالف مع قشتالة لتأسيس مملكة صغيرة على أنقاض الدولة الموحدية، ليصبح تابعًا للتاج الملكي القشتالي، ويدفع الأتاوة السنوية[6].

هذه التبعية لقشتالة لم تكن كافية على الإطلاق لضمان السلام للمملكة الصغيرة الناشئة؛ فقراءة المدونات التاريخية لذلك العصر تكشف عن التهديدات المستمرة التي أحاطت بها من جهات ثلاث. فالحليف المسيحي لم يكن أكثر من عدو متربص، ولم تكن المواثيق لتمنعه بحال من إعلان الحرب على غرناطة كلما سنحت الفرصة لذلك. من جهة ثانية، لم يكن النصريون على وفاق دائم مع الجار المسلم في شمال أفريقيا؛ فالتاريخ يحكي كيف دب الخلاف غير مرة بين الجارين المسلمين لدرجة التصادم العسكري فعليًا. ومن جهة ثالثة، لا يمكن نسيان الأحداث الداخلية المؤلمة التي سترافق دولة بني نصر طوال تاريخها، حتى اصطبغ تاريخها بالمؤامرات والدسائس وكثير من الاغتيالات.

ويلاحظ في هذا كله القاسم المشترك وهو التوجس والقلق حيال هذه الجهات الثلاث، حتى تمكن الخوف من نفوس الأندلسيين وأمسى واقعًا لا يمكن تغييره، وهو ما سنركز عليه في قادم الأسطر.

في تل الحمراء، كان أول المرافق نشأة ما يعرف بالقصبة Alcazaba، التي ارتفعت على قمة التل على العادة في التحصينات العسكرية الأندلسية لأغراض الدفاع والمراقبة ضد أي خطر محتمل. بعد ذلك، توالت المرافق الأخرى ومنها القصور الملكية الفخمة، وكأن هذه المجاورة بين الثكنة العسكرية بما تحوي من معاني الخطر والقسوة؛ والقصور الفخمة الهانئة؛ بمثابة إحداث التوازن بين الشقاء والسعادة.

وعليه، فمن السذاجة الاعتقاد بأن القصر كان مجرد أبنية فخمة لسكنى العائلة الحاكمة، لا نتاج تأمل فكري عميق تجسد في ذوق فني رفيع.

لكن السؤال الذي يلح هنا هو: إلى أي مدى يمكن أن تكون العمارة الأندلسية -التي تبدو فضاءات للبهجة والحيوية- مكامن لمشاعر متجذرة تعاني من كرب دفين يسمح لنا أن نصف بنيانها وخاصة قصر الحمراء، على أنه "صرح الخوف"؟

وستحاول هذه الدراسة الإجابة عن هذا السؤال عبر تحليل دقيق لشعر النقوش، الذي هو وسيلة تعبير تسللت فيها مشاعر الخوف تلك دون وعي من الشاعر.

المبحث الأول: جذور الخوف (فقدان الأمن)

لعل الشعور العام بعدم الأمان هو أصل مشاعر الخوف والتوجس لدى الأندلسيين عبر مراحل مختلفة من تاريخهم. هذا الشعور المضطرب المشفوع بتوقع وشيك للاضمحلال، بلغ ذروته لدى الغرناطيين في مراحل وجودهم الأخيرة تحت الحكم النصري، بعد عملية إنضاج تاريخية نتيجة مجموعة من العوامل التي بذرت مشاعر سلبية وتشاؤمية نمت بخفاء مجاور لمشاعر الفرح والأمن والسعادة. وفيما يلي بعض هذه العوامل:

-تراكم الأخطاء (سقوط المدن و انكماش الأندلس)

أدى انهيار الخلافة الأموية في قرطبة، وتفكك الأندلس إلى ممالك صغيرة وضعيفة، وفرض قشتالة والممالك المسيحية نفسها قوى بديلة ومهيمنة في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ إلى زرع

الخوف في نفوس الأندلسيين من قرب النهاية، وخسارة الوطن ومجهولية المصير. وكان الحدث الأبرز، الذي أفضى إلى تفاقم هذه المخاوف وجعلها واقعًا ملموسًا؛ هو سقوط مملكة طليطلة في أيدي ملك قشتالة ألفونسو السادس نهاية القرن الحادي عشر الميلادي.

تسبب هذا السقوط في إحداث ضجة كبيرة بين الأندلسيين لأسباب مختلفة؛ فطليطلة لم تكن واحدة من أكبر مدن الأندلس وأهمها فحسب، بل كانت محصنة طبيعيًا نظرًا لموقعها الجغرافي إذ يحيط بها النهر من أسفلها، وتسمو على مرتفع شاهق يصعب معه اقتحامها.

يضاف إلى ذلك موقعها في قلب الأندلس، ولو كانت مدينة هامشية أو حدودية لكان من الممكن تفهم سقوطها وخسارتها. هذه الحيثيات مجتمعة كانت بمثابة الضربة المدوية التي خلخلت الحالة النفسية للأندلسيين وأيقظت فيهم مشاعر القلق العام وانعدام الأمن بشأن المستقبل، عبر عنها الشعر بصدق في هيئة ردة فعل بدت لبعضهم جامحة ولآخرين منطقية ومعقولة.

هكذا كان الحال مثلًا مع الشاعر ابن العسال الذي بدا رد فعله متأرجحًا بين اللامسؤولية والمنطقية. فبدلًا من الحث على المقاومة لاستعادة المدينة، رفع صوته داعيًا الأندلسيين إلى النزوح وترك الأندلس لمصيرها مبديًا انهزامية واضحة ممهورة بمنطقية عالية يفسرها بيتاه الشهيران[7]:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما البقاء بها إلا من الغلطِ
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولًا من الوسط

هذه الواقعة المفاجئة كانت بمثابة دق ناقوس الخطر بالنسبة للأندلسيين، ومعها تولدت مشاعر القلق والخوف على المستقبل، ومع مرور الوقت، تمكن هذا الجذر في لاوعيهم على وقع تسارع الأحداث التي عصفت بالأندلس نهاية عصر الموحدين، لتنهار قرطبة وإشبيلية وبلنسية وغيرها من مدن الأندلس في ظرف سنوات معدودة.

ومع نشأة دولة بني نصر، منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تقريبًا، عقب سقوط هذه المدن الكبرى؛ اختطت نهجًا سياسيًا دقيقًا مع كل الأطراف المحيطة بها داخل شبه

الجزيرة الأيبيرية وخارجها؛ رغبة منها في استدامة وجودها دون ضمانة حقيقية، ما جعلها تحت الضغط الدائم وفي حالة دائمة من الترقب والقلق.

ولا شك أن قارئ تاريخ الأندلس في مرحلته الأخيرة خصوصًا، يواجه ظاهرة يصعب فهمها، ويمكن وصفها بظاهرة "أصدقاء الأمس أعداء اليوم، والعكس"، وقد أشير لذلك سابقًا. فإذا كان من السهل تفهم عداء غرناطة لقشتالة، فإنه يصعب تمامًا فهم سر مشاعر الود المتبادلة في حال الصدام والحرب بينهما. هذا ما حدث حين مات الملك القشتالي ألفونسو الحادي عشر (1350م) في حصاره لجبل طارق، وكيف كان موته وانسحاب قواته فتحًا تاريخيا اعتبره الأندلسيون معونة ربانية عظيمة لشدة العنت الذي لقوه على يد هذا الملك. ومع ذلك، فما أن دفن الملك القشتالي حتى انطلق وفد غرناطي لتقديم تعازيهم لقشتالة واضعين الشموع على قبره![8].

هذا الموقف المعقد يمكن أن يفسر-ضمن تفسيرات أخرى- على أنه نوع من الارتباك المشاعري عند الأندلسيين نتيجة مخاوفهم المستقرة في لاوعيهم التي تدفعهم للمهادنة والموادعة والدونية وهم في حال من الندية والمواجهة.

وفي كتابات ابن الخطيب نفسه، بوصفه المؤرخ الأهم لهذه الحقبة، تناقض بيّنٌ تجاه القشتاليين؛ إذ يكيل لهم المدح والذم في الوقت نفسه. فمن ناحية، يشيد بالملك القشتالي بدرو الأول، الذي عاون السلطان محمد الغني بالله على الرجوع من منفاه بالمغرب وتولي عرش غرناطة من جديد بعد حادثة الانقلاب الشهيرة ضده، ليعود، في صفحات لاحقة في الكتاب نفسه، ويهاجم المسيحيين واصفًا إياهم بأنهم أمة لا عهد لها ولا أمان[9].

لقد كانت قشتالة عند الأندلسيين سببًا للسلام والاطمئنان ومصدرًا للخوف العميق في وقت واحد، وهذا لا يمكن فهمه إلا في إطار انعدام الاستقرار النفسي لدى الأندلسيين؛ إذ يتداعى الخوف والقلق في غير مناسبته، أو بالأصح في مناسبة السلام والأمان.

-مكائد البلاط

ليس من المبالغة أن نقول بأن قصور الحكم الأندلسية كانت مصدرًا مهمًا لإحداث مشاعر الخوف وتعزيزها في نفوس الأندلسيين؛ خاصة منذ عصر الطوائف الذي اتصف بالشرذمة العالية للأندلس وشدة التنافسية على الحكم بين ملوكه.

ولعل الخوف الكامن داخل نفوس الحكام أنفسهم تضاعف حيال الدسائس الداخلية داخل البلاط الواحد؛ فلم يكن الحاكم الأندلسي يتوجس من عدوه الخارجي قدر توجسه من الداخلي، وربما كان للتاريخ الطويل من الدسائس البلاطية آنذاك أثر في بلورة هذا القلق والخوف واستدامته لدى النخب الحاكمة، وإن كان امتد هذا الأثر ليشمل الأندلسي أيًا كان موقعه وكيفما كانت صفته.

أما أكثر الحقب تمثيلًا لهذه المؤامرات التي تناهت معها مخاوف الفناء والاضمحلال، فهي -بلا شك- مرحلة بني نصر في غرناطة، حيث كان قصر الحمراء مسرحًا دائمًا للمكائد والاغتيالات السياسية. لقد كانت حالة هذا القصر فريدة في نوعها بين البلاطات العربية والأندلسية، من حيث إنه استقر في الذهن بوصفه نمطًا حيويًا متماسكًا إلى يومنا هذا.

ومن هذا أنه غدا موضوعًا أدبيًا لغير قليل من الأعمال الروائية للكتاب الإسبان اليوم التي تتمثل البعد السلبي لهذا الفضاء بدسائسه المخيفة ونهاياته الفاجعة، ومنها على سبيل المثال:

La sangre sobre las azucenas / Manuel Fernando Estévez Goytre,

(الدم على السوسنات، مانويل فرناندو ستيبيث)؛

El Perfume de Bergamota / Gastón Morata,

(عطر البرغموت، غاستون موراتا)؛

El cautivo de Granada / Marceliano Galiano,

(أسير غرناطة، مارثيليانو غاليانو)؛

El secreto nazarí de Paco López

(السر النصري، باكو لوبيث)؛

El Último Hayib de la Alhambra de Antonio Rodríguez Gómez,

(حاجب الحمراء الأخير، أنطونيو رودريغيث غوميث)..

لقد بدا تاريخ الدولة النصرية سجلًا متصلًا من المؤامرات السياسية الداخلية، التي كانت الحمراء شاهدة عليها[10]، فلم يكد يسلم سلطان من سلاطينها من أن يتورط في مكيدة داخلية أو يكون ضحية لها. فمحمد الفقيه، السلطان الثاني لقصر الحمراء وابن مؤسس السلالة النصرية؛ ينتهي به الأمر قتيلًا على يد ابنه محمد الثالث، بكعكة مسمومة، ومحمد الثالث هذا لا يلبث أن يطيح به أخوه نصر، الذي ثار ضده بمساعدة أهل غرناطة.

لكن نصرًا لم ينجح في البقاء طويلًا في السلطة، ليجد نفسه مخلوعًا وطريدًا، ليخلفه إسماعيل الأول الذي لفظ أنفاسه على يد ابن عمه عند بوابة قصر الحمراء، بسبب جارية تنافسا عليها، ليخلفه ابنه القاصر محمد الرابع، الذي يغتاله رجال من حاشيته. كذلك يوسف الأول -شقيق محمد الرابع وخليفته- يقضي على يد رجل ممرور (مجنون) من أهل غرناطة في الحمراء، ونجله محمد الخامس يتعرض لانقلاب مفاجئ على يد أخيه إسماعيل الثاني وصهره محمد السادس، المعروف باسم برميخو، وإسماعيل هذا يقتله البرميخو الذي سيلقى حتفه بدوره عن قريب.

هكذا كان التاريخ الدموي لغرناطة حتى عهد أبي عبد الله الصغير، آخر سلاطين بني الأحمر هؤلاء، غير مقتصر على سلاطينهم؛ فقد واجه المصير المأساوي نفسه جلة من رجالات القصر ووجهائه كابن الحكيم، وابن الخطيب، وابن زمرك، إضافة إلى عائلة بني سراج ونهايتها المأساوية في جنبات قصر الحمراء الشهيرة[11].

من المؤكد أن هذه المؤامرات والصراعات تركت أثرًا بالغًا بين الأندلسيين ورسخت مخاوفهم الوجودية، فقد كان يُنظر إلى قصر الحمراء على أنه معادل موضوعي للحياة ورمز أمين للأندلس، وحين يدب الموت في جنباته يكون بمثابة الموت للقصر نفسه ومن ثم للأندلس وأهله. وعلى وجهة النظر هذه، يأتي التوفر الشديد على بناء القصر وتزويقه، محاولة لمواجهة شعور الخوف والقلق حيال البقاء والاستمرار، تدل على ذلك التعبيرات والزخارف والتعبيرات الكتابية، خاصة الشعرية، التي يتراءى فيها بطريقة غير مباشرة هذا الشعور المتأصل.

المبحث الثاني: تمثيلات الخوف

في هذا الجزء من دراستنا، سنحاول الوقوف على أهم تمثيلات مشاعر الخوف الأندلسية المختبئة في اللغة الشعرية، عبر مراقبة العواطف المباشرة التي يختبئ وراءها هذا الشعور، أو بعبارة أخرى، التي يقاوم الشاعر مخاوفه من خلالها. هذه التمثيلات حاضرة في شريحة معتبرة من شعر هذه الحقبة، ما يوحي بأنها ظاهرة مستقرة ومتكررة، وليست مرتبطة فقط بقصر الحمراء، ومع ذلك، سنقصر مقاربتنا على الأبيات الشعرية المخصصة للقصر المذكور سواء منها المنقوش فعليًا وغير المنقوش، مما أعد لذلك.

وعلة الاكتفاء بنقوش الحمراء تعود –من وجهة نظري- إلى أن تسلل الخوف الدفين فيها بدا أكثر وضوحًا، وتمثيلاته أكثر نضجًا. إن قصر الحمراء، بمظاهره الثقافية والجمالية، وقيمته المعنوية بما هو الفضاء الرمزي للأندلس؛ خير من يغري بالتشبث بالحياة بالرغم من كل الظروف، وهو ما يلهب في النفوس الخوف من إمكانية فنائه، ومن ثم خسارة الأمل الجميل في البقاء على قيد هذه الحياة.

وفيما يلي أهم تمثلات الخوف في شعر الحمراء التي أمكننا تحديدها وفهمها:

-النزعة إلى الخلود والديمومة

من أنبل الوسائل التي تجسدت في شعر نقوش الحمراء لمواجهة الخوف من الانقراض والتحول؛ هو ذلك الإصرار الأبدي على فكرة الخلود والديمومة. إن فهمًا جيدًا لسياق هذه النقوش، كفيل بإطلاعنا على محيط متوتر يحكمه الكثير من التحديات والصعوبات، كان الشاعر فيه شريكًا أو شاهد عيان على أحداث دموية جرت في هذا القصر، استطونت ذاكرته وتركته مهووسًا بالخوف والقلق والترقب بوعي أو بدون وعي منه.

ومن مظاهر هذه النزعة هنا، الإلحاح على معنى الخلود الذي يتغلغل في كثير من نصوص النقوش الشعرية. نذكر على سبيل المثال ابن زمرك شاعر قصر الحمراء الأهم، الذي يلح على هذا الموتيف في مناسبات مختلفة وهو يخاطب سيده سلطان غرناطة[12]:

عليك سلام الله فاسلم مخلدا تجدد أعيادا وتبلي أعاديا

****

خلـــد الله ذا المكـــان الســـعيدا يتقضـــى الزمـــان عيـــدا فعيـــدا

***

خلـــد الله مـــالكي رب ملـــك خالـــد الفخـــر فـــي صـــفاح الصـــفاحِ

***

وخلـــد الله قصـــرًا أنـــت ســـاكنه والنصـــر فيـــه إلـــى عليـــاك ينتســـبُ

نلحظ في هذا النموذج من شعر ابن زمرك كيف أن دلالات الخلود (خلّد، مخلد)، أتت مكررة في قصائد مختلفة من حيث المناسبة والموضوع، حتى في البيت الواحد أحيانًا. ومن يقرأ هذه الأبيات لأول وهلة، قد يقع في ذهنه أن هذا التكرار لا يعدو أن يكون من قبيل الصيغ المشتركة التي يحرص عليها الشعراء لإرضاء السلاطين الممدوحين ملحين في الدعاء لهم بالبقاء والسعادة، كعادة الشعراء العرب مع ذوي الجاه والسلطة. وقد يبدو أيضًا لهذا القارئ أن الأبيات إنما تعكس ضرورة التفاؤل والبهجة اللازمة في مثل هذه القصائد الاحتفالية. لكن تأملًا دقيقًا للسياق الثقافي والسياسي لهذه المرحلة، كفيل بالإبانة عن أن القضية تتجاوز مجرد دعوة معتادة أو حالة من البهجة في مناسبة سعيدة.

إن واقع تلك الحقبة يؤكد أن الظروف السياسية لم تكن على ما يرام، وأن الخوف من العدو الغاشم تزداد وطأته في نفوس الغرناطيين، وأن النصر على العدو والسلام الحاسم -كما تَعِد الأبيات- ليسا أكثر من وهم مستمرأ وخداع ذاتي.

إن المبالغة في الاحتفال بهذه المناسبات كانت بمثابة مسكنات لهذا الخوف، وربما ردة فعل بائسة على الواقع المرير، ترفض فكرة التلاشي والاضمحلال.

وفي إطار فكرة الخلود هذه، نجد تنويعًا للعلامات اللغوية التي تشير إليها وتستدعيها. من هذه العلامات "ديمومة"، "دامَ"، "لا زالَ"، "بقيَ"، التي تؤكد شدة التشبث الداخلي بالبقاء والرفض الخفي للفناء والعدم. ولعل دارس نقوش قصر الحمراء يلفته حضور هذه الفكرة أيضًا في العبارات النثرية المنقوشة على جدران القصر، وهي من الوفرة بحيث إنها تصادف العين في غير زاوية وموضع منه، ومنها: "الغبطة المتصلة"، "بنائي مخلد"، "خلد الله مُلكه" ،

"الملك الدائم"، "العافية الباقية"، "الكرامة والسرور الدائم لصاحبه"[13]. وهذه العبارات ربما كشفت عن أن هذا الخوف الضمني جماعي لا فردي، تجذر بهدوء في الروح الشعبية.

ولدعم هذه الأحكام، سنعرج على سلسلة من الأبيات لعدد من شعراء الحمراء ثم نتناولها بالتحليل. فقد كتب الوزير ابن الجياب[14]:

مما نقش على باب حمام دار الملك:

من كأبي الحجاج سلطاننا دام له الملك الرفيع المنارْ

ومما أنشأ ليكتب على القلهرة الجديدة بالقصر:

من آل نصر دام في نصر وفي سعد فيبني ما يشاء كما يشا

وقال لينقش في قبة قمارش:

يا قبة لم تزل بالملك آهلة محمية بصدور البيض والأسلِ

لا زال يعمر هذا القصر في نعم تهمي سحائبها والله خير ولي

ويقول عن قصر محمد الثاني:

بقيت في نعم تترى عليك وفي سعد مقيم مدى الأيام مضمون

وفي السياق ذاته، نظم لسان الدين ابن الخطيب لينقش على قبة العرض في قمارش أبياتًا منها[15]:

فدام جميع الشمل في ظل نعمة من الله مشمولًا بحسن العواقبِ

ومما نظم ابن زمرك لينقش على بعض طيقان القصر[16]:

دام في رفعة شأن آمنًا وقت الزوالِ

وعلى قوس طاق آخر يقول:

دمت شمسًا في أفق هذا المجالِ آمنًا وقتها طروق الزوالِ

ومما نقش على طاقي القبة:

لا زال في أفق الخلافة نيرًا يجلو بباهر عدله الأحلاكا

ومما نقش في القبة الغربية:

فـــدام قريـــر العـــين منـي بغبطـــة يـــنظم للإســـلام فـي ربعـــه شـــملا

ومن شعره المنقوش في طاق آخر من القصر:

أدامَ ربـــي لمـــولاي البقـــاء كمـــا أدام للـــدين والـــدنيا بـــه المنحـــا

وكتب الشاعر ابن فركون لينقش على بعض مرافق القصر[17]:

لا زال فـــي غبطـــة موصـــولة أبـــدًا مخلـــدًا فيـــه حتـى تنشـــر الصـحفُ

ونظم لينقش على مرفق آخر:

دام فـــي غبطـــة وطـــول ســـرورٍ يقـــدم النصـــرُ جيشَـــه حيـــث حـــلا

هذه شريحة من الأبيات المكرسة لقصر الحمراء، تضمنت علامات أخرى للبقاء الأبدي: "دام"، "لا زال"، "أدام"، "دمتَ"، "لم يزل"، مع تكرار وغلبة لـ "دام" ومشتقاتها، ربما لانسيابها في الذهن وعلى اللسان مقابلًا شعريًا لـ "الزوال" و "الفناء".

ولا شك أنها ورفيقاتها من العلامات قد نجحت في منحنا انطباعًا عن تشبث مؤكد بالبقاء وخوف عميق من النهاية، ولعل عبارات من قبيل " مشمولًا بحسن العواقبِ" أو " آمنًا وقت الزوالِ" أو " آمنًا وقتها طروق الزوالِ " تؤكد هذا الخوف المستكن في نفوس الأندلسيين حيال فكرة الزوال والانقضاء، لأنها عبارات قد لاتناسب مقام الاحتفاء حين تشير للزوال والعواقب أو النهايات، وقد تسربت من اللاواعي لتجعل من البهجة فعلًا مشروطًا.

وجدير بالذكر أن هذه الأبيات ترتبط بممارسة علمية نشطة عند الأندلسيين تتوسل بالقوى السماوية للأجرام من أجل تخليد قصر الحمراء كما سنناقشه لاحقًا. ومن اللافت في السلسة السابقة من الأبيات، فكرة الثبات النفسي والمشاعري لشعراء غرناطة، خاصة شعراء الحمراء آنفي الذكر، حيال موضوع الخوف من الفناء، خاصة كلما ازداد القصر كمالًا وبهاءً، في معادلة عكسية تخالف المعهود، ما يعني الخوف حيال التمام والكمال لا حين النقص والتهافت.

ولعل تجربة ابن زمرك تحديدًا هي الأوسع بين شعراء الحمراء في هذا السياق؛ ففي شعره تنويع واضح لهذه الموتيفات والعلامات التي تعبر عن رغبة عميقة في البقاء، والخوف من المجهول المنذر بالخراب والفناء. وقد يكون هذا بسبب أن ابن زمرك شهد مرحلة عصيبة من التقلبات السياسية المصحوبة بأزمة اجتماعية وثقافية خاصة بعد مصرع شيخه ابن الخطيب آخر الشخصيات الأندلسية العظيمة كما يقال، ما جعل من الشاعر في حالة من الشعور بالانحدار والترقب انعكست في شعره، لينتهي به المطاف قتيلًا في داره وبين عياله.

-الاستعانة بالقوى السماوية

ليس بالجديد القول بأن قصر الحمراء بني على أساس من فكرة المضارعة مع العناصر السماوية بحثًا عن التشابه مع العوالم العلوية، وآكدها الجنة السماوية وكل ما يحيط بها، كالعناية الإلهية، والحضرة الربانية، وعرش الله، وما إلى ذلك.

ومن نقوش القصر الكتابية ما يدعم هذه الفكرة ويؤكد ترسخها في ذهن صناع القصر، من مثل الاقتباس القرآني:﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ ﴾ [يس: 34][18]، كما أن عديد الأبيات الشعرية تشير لذات الشيء، مما سنأتي عليه أدناه.

ويكفي أن نتأمل قبة قمارش على سبيل المثال وتمثيلها الفاخر للعالم العلوي وترميزها لذات الله وعرشه لتبين قصدية المشابهة، التي بدونها لا يمكن فهم قصر الحمراء.

لكن ما لا تحسن الغفلة عنه، هو أن استحضار هذا النموذج العلوي ليس على سبيل الرغبة في المماثلة الجمالية أو لدوافع دينية وفكرية فقط. ففي رأيي، هناك حافز وجودي ضاغط يختبئ في لاوعي الأندلسي مرده خوف مستتر محجوب خلف مظاهر خادعة من الفرح والسرور. هذا التوجس حيال البقاء، المتجذر في روح الأندلسي وعقله الباطن، ألجأه لقوى السماء وعناصرها الخالدة، خاصة الجنة، وهو ما يظهر في طرق التعبير لديه التي تستجيب لهذا المضمر النفسي، جاعلة الجنة الأرضية هي السماوية نفسها لا نسختها، لتكون ألصق بفكرة الأبدية وأقرب لها فتقليد الجنة ليس كاستنزالها كما هي.

من جهة أخرى، وعطفًا على قصب السبق الذي أحرزه الأندلسيون في مجال علم الأجرام واتكائهم على التنجيم، فقد فعلوا ذلك لجلب الفأل والحماية من الشرور وصروف الدهر، ليضمنوا البقاء بأمان في لجة من الخوف والاضطراب.

هذه الممارسة تغلغلت في شتى مناحي الحياة، بداية من ختان المواليد وصولًا لتشييد المنازل والمُنيات. ومن الثابت أن قصر الحمراء قد شيد على هدي مما يعرف بـ "النصبة الفلكية"[19]، وهي مواضع فلكية يكون اقتران الكواكب فيها جالبًا للحظ والسعادة وضامنًا للخلود والبقاء، وفي شعر تلك الحقبة ما يشير لذلك صراحة[20].

لقد عبر ابن زمرك عن فكرة استنزال الجنة السماوية إلى الأرض، ففي قصيدته التي أعدها لتنقش على قبة قاعة الأختين يقول[21]:

فمُتـــع مولانـــا بجنـــة خلـــدها جـــزاء بمـــا أولـى الجميـــل الـــذي والـى

وقال في نقش على طاقات القصر:

هـــذه الـــدار جنـــة للخلـــودِ فـــي ســـرور مواصـــل وســـعودِ

جُمعـــتْ للنعـــيم فيهـــا فنـــونٌ مـــن ظـــلال تنـــدى وعـــذب بـــرود

***

هـــذه جنـــة الخلـــود تبـــدت لـــيس عنهـــا لســـاكن مـــن بـــراحِ

وربما أدرك القارئ من قراءته لهذه الأبيات، أن إشارة الشاعر إلى الجنة في هذا السياق لم تكن لمعاني النعيم واللذة فيها فقط؛ بل لأمر أهم يختلج بدواخله، وهو ما تشتمل عليه من معنى الخلود الذي يجابه به فكرة الزوال المؤلمة.

لقد عبر الشاعر عن قلق الأندلسي من استحضار النعمة مجردة، فكل نعمة إلى زوال خاصة في ظروف كظروف الأندلس، فاستحضر معها فكرة الخلود التي لا يمثلها شيء كما تمثله الجنة السماوية التي وعد الله بها عباده ضامنًا لهم فيها الخلود، وتدل على هذا الاقتران القصدي والضروري الذي يشف عن خوف دفين من الفناء؛ عبارة ابن زمرك نفسه: "ليس عنها لساكن من براحِ "، ليدوم نعيم قصر الحمراء والأندلس.

وفي هذا الصدد، تلفت الذهن إشارة بلاغية مهمة للغاية؛ فالشاعر، وهو يزاوج بين قصر الحمراء والفردوس العلوي، يسقط أداة التشبيه ليكون التشبيه بليغًا "هذه جنة الخلود". فهذا الملمح البلاغي يعطينا انطباعًا أن المسألة ليست إرادة المضارعة فقط، وأن الأمر لا يتعلق بكيانين منفصلين ومستقلين بينهما شبه بشيء واحد؛ وعليه فقصر الحمراء لا يشبه الجنة السماوية بل هو الجنة نفسها، وليس نسختها بل عينها.

استمرت هذه النزعة في مرحلة ما بعد القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي (وهو قرن الاغتيالات والدسائس البلاطية المتوالية)، الذي شيدت فيه أهم مرافق الحمراء وآخرها تقريبًا. فعلى سبيل المثال، في القرن التالي وهو الأخير في عمر الأندلس؛ هذا شاعر يوسف الثالث ابن فركون ينظم أبياتًا لتنقش على أحد مرافق القصر، ومنها[22]:

كأن من جنة الفردوس منشأه فهذه غرف من فوقها غرفُ

يصف هذا البيت أعمال الترميم والتوسعة التي قام بها يوسف الثالث في قصر الحمراء، وهو ضمن مقطوعة على لسان البناء نفسه، وفيها إشارة إلى الفردوس الأرضي، الذي يصلي الشاعر من أجله في نهاية النص ليدوم ويخلد:

لا زال في غبطة موصولة أبدًا مخلدًا فيه حتى تنشر الصحفُ

والواضح في دعوة الفردوس السماوي هنا استقدام الشاعر لواحدة من أهم عناصرها وهي الغرف أو المنازل المتراكمة، ما يعطي انطباعًا بعمدية المشابهة في بنيان الحمراء ليكون مقابلًا تمامًا لنظيره الذهني في الجنة العليا. ومع أن الشاعر يوظف أداة التشبيه "كأن"، فقد بقيت فكرة النزعة للتخليد والدوام ماثلة بفكرة الغرف الكاثرة والمنازل الطبقية التي تزيد الشعور بالأمان الطويل والسكنى الأبدية.

ولا يغيب أن هذا البيت الذي يشير للغرف الأرضية في الحمراء؛ يستلهم تعبيرًا قرآنيًا في سياق وصف الله تعالى للجنة في الآخرة: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ ﴾ [الزمر: 20]، وحضور القرآن نفسه تأكيد على نزعة التخليد التي يلجأ إليها الأندلسي، فالقرآن باق لا يطاله التغيير ولا التبديل:قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]

ومن الجدير بالتأمل كثرة الاقتباسات القرآنية على جدران الحمراء، تعويذًا له من الفناء وضمانة لخلوده واستمراره.

ويُلاحظ في نصوص قصر الحمراء الشعرية فيما يتعلق بهذا الجانب؛ تنوع عناصر السماء الموظفة في وصف القصر: الشمس، والهلال، والبدر، والنجوم، والأقواس، والأبراج. لقد نظر الشاعر الغرناطي إلى ما هو خارج الواقع المخيف الذي يعيشه ويعجز عن السيطرة عليه؛ بوصفه قوة حماية خاصة العالم العلوي المدعوم بالجبروت الإلهي.

في شعر ابن زمرك شاعر الحمراء الأهم؛ حضور لافت لهذه العناصر السماوية، مثل قوله مما نظم لينقش على مرافق الحمراء[23]:

والأفــق يهــوى أن تكــون بروجــه لــك فــي الخلافــة منــزلًا ومقــيلا

***

واعتبــر تــاجي تجــده مشــبهًا تــاج الهــلالِ

وقد ينصرف الذهن إلى أن استلهام عناصر السماء في هذه القصائد التي نظمت في غير مناسبة؛ لا يعدو أن يكون من قبيل الوسيلة الموضوعية للتوصل لنظم هذا النوع من القصائد، يعضدها فكرة التشابه الشكلي والاسمي بين عناصر القصر وعناصر السماء. وهذا وإن كان تعليلًا سليمًا في إطاره العام، فإنني أعتقد بأن الأمر أعمق من ذلك؛ إذ إن هذا الإلحاح المستمر لبناء القصيدة على العنصر السماوي نابع من خوف دفين من المفاجآت السيئة والمصائر الكارثية التي يمكن أن تحل بالقصر.

ونظرًا للبقاء الأبدي الذي تتصف به العناصر السماوية، فقد عمد إليها الشاعر ليجعل قصر الحمراء كينونة دوام أبدي تحارب شبح الفناء والنهايات التي لم تزل تطارد الأندلسيين، خاصة في هذه المرحلة البائسة من تاريخهم.

-التعويذات والتمائم

سلف القول بأن الأندلسي في أواخر مراحل وجوده في شبه الجزيرة الإيبيرية، ألزم بالتعايش مع واقع أقل ما يقال عنه إنه مضطرب ومخيف؛ وذلك نتيجة عوامل عدة أهمها

الضغط المتزايد من القوى المسيحية ضمن ما عرف بحروب الاسترداد، وتردي الأوضاع الداخلية الذي أدى لغياب شخصية القائد النموذجي خاصة مع انقطاع المدد العسكري من الجار المغاربي منذ أواخر النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. لذا تمدد شعور اليأس حيال هذا الواقع في نفوس الأندلسيين، محدثًا انتكاسة حضارية كان من أجلى علاماتها الانزياح عن الواقع والتعلق بالأساطير والخرافات.

ولفهم ذلك على نحو أوضح، يكفي تأمل عادة الأندلسيين في بعث رسائلهم إلى ضريح النبي عليه الصلاة والسلام في شبه الجزيرة العربية، مستغيثين بشخصه وطالبين منه المدد والعون[24].

هذه الحالة من التوجس والقلق بشأن قرب النهاية ودنو الفناء الكامنة في دواخل الأندلسيين؛ تؤكدها شهادة المقري في كتابه "نفح الطيب"؛ حيث يروي حكاية الطلسم المعروف بـ"فروج الرواح"، المدفون في قصبة غرناطة القديمة.

تقول الأسطورة: إنه إذا اكتشفت هذه التعويذة، ستنهار غرناطة وتتوارى الأندلس إلى الأبد[25].

ومع أنه لا توجد معلومات كافية عن حقيقة هذا الطلسم وتاريخه، يظل دالًا جدًا على طبيعة الحال في هذه المرحلة المتأزمة، وسيطرة الخوف على مشاعر الغرناطيين للحد الذي ألجأهم إلى طلسم مدفون يودعون فيهم آمالهم لأجل البقاء لعله يمنحهم الحماية التي لم يعد الواقع يضمنها لهم.

في قصر الحمراء نجد عبارات ورموزًا تجسد هذه المشاعر الخفية في نفوس أهل غرناطة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، رمز "التخميسة" أو ما يعرف بـ "يد فاطمة" الذي يمكن رؤيته اليوم بكل وضوح على بعض المرافق كـ Puerta del Vino ، تعويذًا للقصر من بابه الرئيس حتى تقف على عتباته كل الشرور من عين حاسد أو طوية عدو متربص.

هذه التعويذات والتمائم حاضرة كذلك في أبيات غير واحد من شعراء بني نصر، ومن ذلك ما نطالعه في ديوان ابن الجياب[26]:

"وقال أبياتًا رسمت على حجاب صنع للدار الكريمة...:

أنـــا ســـتر مســـبل علـــى الإمـــامْ وهـــو ظـــل وارف علـــى الأنـــامْ
فلـــي الحجابـــة الكبـــرى التـــي أحفـــظ الســـر بهـــا حفـــظ الكـــرام
وبمـــولاي أبـــي الحجـــاج لـــي غايـــة الفخـــر وحســـبي والســـلام
دام محجوبًا [.....] نعيم مستدامْ"

نقش هذا النص -الذي وصل إلينا مبتورًا-على تميمة أو "حجاب" على حد تعبير الشاعر، صنع خصيصًا ليكون تعويذة حماية لقصر الحمراء ولساكنه الأهم وهو السلطان. ومع أنه وصل إلينا مبتورًا كما هو واضح، فقد أمكنه الإفصاح عن دوافع التعويذة ووظائفها، التي يمكن فهمها في ضوء فكرة البحث التي نحن بصددها.

لقد شفت الأبيات عن شعور من الخوف والانزعاج كان كامنًا خلف مظاهر البهجة المرتبطة باتخاذ القصور والزينة، وفي الوقت الذي تؤدي التعويذة دورها في حماية المكان والإنسان ومقاومة الشعور بالزوال ورفضه؛ بدا هذا التوجس والقلق دافعها الأهم، لكنه دافع غير معلن ولا ظاهر. لذا نرى الشاعر يلح في أبياته على فكرة الحفظ والحماية الدائمة ويكررها، من مثل قوله: "ستر"، "دام"، "محجوب"، "مستدام"، كاشفًا عن مكنوناته النفسية الخفية التي تتحكم في سلوكه اللغوي وتجربته الشعرية، على غير وعي منه في الغالب.

وفي السياق ذاته، في سلسلة أخرى من الأبيات المخصصة للحمراء، يستدعي الشعراء الغيبيات ويستعينون بمواضع الأبراج للحديث عن القصر. ففي نظم طويل لابن الجياب يصف فيه قصرًا شيده هناك السلطان محمد الثاني المعروف بالفقيه؛ يقول[27]:

فاهنـــأ بهـــا دارَ ملـــك قـــد حللـــت بهـــا بطـــالع الســـعد والطيـــر الميـــامينِ

إن "طالع السعد" هذا ما هو إلا منازل الأبراج التي على أساس منها كان بناء قصر الحمراء أو سكناه "حللتَ بها"، وهي النصبة الفلكية التي سبقت الإشارة إليها. لقد أبان البيت عن مدى تعلق الغرناطيين بفأل السماء وهم يشيدون رمزهم الحضاري وأهم معالمهم، لأنهم آمنوا بأثر السماء (الأبراج هنا) فيما يحدث على وجه الأرض. مثال ذلك ودليله، لسان الدين

ابن الخطيب، مفكر الأندلس الأهم في العصر الأخير؛ الذي كان على يقين من علاقة الأبراج بمصائر الناس[28].

ومن المثير للانتباه أن بيت ابن الجياب المذكور، يقرن -حسب فهمي- فأل السماء بفأل الأرض؛ فعلاوة على النصبة الفلكية، يستعيد الأسطورة العربية القديمة التي تسترشد بحركة الطير ونوعه لتوقع الخير أو الشر والتصرف بناء عليه. وعليه فطائر السعد المتيامن شريك في حماية الحمراء، وقد لا يكون الأمر من قبيل الاستدعاء الذهني لأسطورة قديمة فقط؛ بل ربما جرى الاحتكام فعليًا لحركة الطير لتشييد القصر.

هذا النداء للقوى العميقة من طرف بناة قصر الحمراء من أجل سلامتهم وخلودهم، ما هو إلا علامة على مخاوفهم الدفينة، تتبدى بإلحاح في أثناء نتاجهم الشعري. فعند ابن زمرك يتباهى قصر الحمراء نفسه بنصبته السعيدة التي تضمن صيانة فتنته من البلى والفناء[29]:

وأنـــا الـــذي يزهـــى بـــأيمن نصـــبة والشـــاهدان العـــدل والتعـــديلُ

هنا يذكر النصبة الميمونة التي يزهو بها القصر وتمنحه ميزة الثقة في البقاء، وهو في مقام البهجة والسرور؛ ليس بوسعها أن تخفي مكنون الشاعر الخائف من تصاريف الزمان وإمكانية الفناء. ويعود يشير الشاعر نفسه مرة أخرى ليلح على الفكرة ذاتها، فيشير إلى الرعاية السماوية عند وصف قصر محمد الغني بالله[30]:

تبيـــت لـــه خمـــس الثريـــا معيـــذة ويصـــبح معتـــل النواســـم راقيـــا

إنها الحماية العليا المفروضة لمصلحة قصر الحمراء عبر الحلف الأجرامي الخماسي، ولأن القصر نشأ على فأله، فإن هذا الخماسي معني بالضرورة بالحفاظ عليه، ولا يغيب عن فهم القارئ ما للرقم "خمسة" من ارتباط بفكرة التعويذ والحفظ ضد الشرور كما في "التخميسة" أو "يد فاطمة"، التي أتينا عليها سابقًا. كما أن توظيف الشاعر للفعل "تبيت" يحيل الحماية إلى فعل دائم؛ فهو فعل مضارع يمنح -في اللغة العربية- شعورًا بالاستمرارية، ويؤكد-من طرف آخر-أن ثريا السماء بقوتها الخماسية تقوم على حراسة القصر عندما يكون

عرضة للشرور، وذلك أثناء الليل، عندما يستلقي حارس الأرض، تاركًا المهمة الأخطر لحارس أكثر يقظة وتفوقًا، وهو الحارس العلوي.

ويعود ابن زمرك من جديد لتأكيد عمق إلحاح المخاوف على تطلب الفأل والحماية[31]:

وخـــاتمي الأعلـــى علـــيّ تميمـــة معـــوذة مـــولاي بـــالملأ الأعلـــى

هنا تتحدث القبة عن محاسنها وأنها في حماية تامة؛ فجزؤها العلوي يشبه الخاتم التعويذة شبهًا يبدو أنه كان مقصودًا لإحداث الأثر الوقائي نفسه. تمتد هذه الحماية إلى السلطان الغرناطي وتؤكد له أنه في حراسة قوة علوية، يمكن فهمها على أنها النصبة الفلكية أو الرعاية الإلهية.

ويبدو أن هذا السلطان (محمد الغني بالله) بالذات، قد اجتاحته المخاوف واستحوذت على تفكيره، ولعل أهم أسبابها كان الانقلاب الشهير الذي اضطره إلى الفرار والنجاة بنفسه، وبالرغم من أنه تمكن لاحقًا من العودة لعرشه؛ فقد ظل مهزوز الثقة يخشى تكرار التجربة، يفزعه طيف الفناء ويتشبث بما يخالفه ويقاومه، ويبدو أن استنفاره التاريخي لتشييد أهم مرافق الحمراء بعد رجوعه لعرشه؛ يفسر رغبته في مواجهة مخاوف الفناء والموت بإقامة مظاهر الحياة ثم الإصرار على إلباسها لباس الخلود والديمومة.

وفي موضع آخر من مواضع القصر، مما نقش على طاق تحدث عن نفسها؛ يكشف ابن زمرك -دون وعي-عن هذا الخوف المستتر[32]:

رُفعتُ قوس سماء ترمي من السعد نَبلا

يستثمر الشاعر بلاغة الجناس ليقابل القوس المعماري للقصر بالقوس السماوي ويحيل الذهن أيضًا لقوس ثالثة وهي السلاح المعروف الذي يرمي النبال على العدو. هذه الإحالة للقوس الحربية تعيدنا مرة أخرى لهوس مجابهة الأخطار والتطلع للأمان، واضعة القصر تحت الحماية القصوى، في صورة مركبة تكثف فكرة الخلود بفضل رعاية النجم السماوي، الذي يصوب نحو القصر سهام سعده لتدفع الشؤم والشرور، في تمثيل معقد لمواجهة الخوف والتوجس، يحكي تعقيدات هذا الشعور في نفوس الأندلسيين بصفة عامة.

النتائج:

إن قراءة متأنية للشعر الأندلسي، لاسيما في مراحله الأخيرة؛ تطلعنا على ظاهرة عميقة تستوطنه بخفاء تام. هذه الظاهرة التي توخيناها في عينة الدراسة من أبيات شعراء قصر الحمراء، تتمثل في دفقة من مشاعر الخوف والتشاؤم والقلق تختبئ وراء مظاهر شكلية من الاحتفاء والبهجة والطمأنينة. فالشاعر الغرناطي وهو يلقي قصيدته أمام سلطانه في قصر الحمراء خلال احتفالات اجتماعية ودينية بهيجة؛ تتسرب منه -بغير وعي-عبارات وألفاظ تكشف عن خوف متجذر من تلاشي الأيام السعيدة.

هذه المخاوف المبطنة، التي حفرت في الروح الأندلسية؛ ترجع جذورها إلى تراث القرون السابقة مع السقوط المتعاقب للمدن الأندلسية بأيدي المسيحيين. يضاف لذلك، الكم اللافت من المؤامرات الداخلية التي عصفت ببلاط قصر الحمراء (المفترض به أن يكون علامة سعادة واطمئنان)، وذهب ضحيتها ساسة بارزون ووزراء ووجهاء. كل هذا، ترك بصمة سوداء في نفوس النصريين، وبذر فيهم الخوف وهز ثقتهم في البقاء والاستقرار.

هذه المشاعر القاتمة التي ابتعثها الشعر من أعماق الروح الأندلسية دون وعي الشاعر بها؛ ظهرت في تمثيلات شعرية أهمها نزعة الشاعر للخلود عبر مجموعة من العلامات المتكررة في الأبيات مثل: (دام، خلد، مخلد، لا زال...)، إضافة للاستعانة بالعالم العلوي كالجنة والأجرام السماوية؛ لما تحتويه من معاني الخلود التي تمنح الشاعر ما يحتاجه من اطمئنان حيال مستقبل وجوده.

لقد كان دور الشعر حاسمًا في كشف هذه المشاعر الخفية وتقديمها؛ فهو المرآة المباشرة لدواخل الشعراء، وخطابه يعد أساسًا لاستيعاب ظروف تلك المرحلة الحرجة. يضاف إلى ذلك قصر الحمراء نفسه بوصفه الفضاء المواتي لتدفق هذه المشاعر من حيث هو باعث السعادة والقلق في الآن ذاته.

الهوامش والإحالات:

(1) BARCLAY, Katie. Introduction: Emotions and Change: 3.

(2) BARRAGÁN, Ahmad Ramsés y MORALES MARTÍNEZ, Cinthya Itzel: 104.

(3) REDDY, William M. *The Navigation of Feeling: A Framework for the History of Emotions*: 3.

(4) PLAMPER, Jan. *The History of Emotions: An Introduction*: 29.

(5) وجيه، مدخل علم النفس: 50.

(6) LADERO, Miguel. *Granada. Historia de un país islámico:* 127.

(7) المقري، نفح الطيب: 352.

(8) ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: 531.

(9) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: 115.

(10) VIDAL, Francisco. El asesinato político en al-Andalus: 349-397.

(11) عنان، دولة الإسلام بالأندلس: 112-150.

(12) ابن زمرك، ديوانه: 130، 308، 155.

(13) PUERTA, Miguel. *Leer la Alhambra*: 53, 97, 195, 200, 287, 320, 312, 353.

(14) ابن الجياب، ديوانه: 182، 224، 355، 451.

(15) ابن الخطيب، ديوانه: 115.

(16) ابن زمرك، ديوانه: 155، 309، 128، 129.

(17) ابن فركون، ديوان: 272، 275.

(18) الآية منقوشة في ساحة الساقية el Patio de Acequia بجنة العريف في الحمراء.

(19) SAMSÓ, *Astrometeorología y astronomía medievales*, pp. XII, XIII, XIV.

(20) ابن زمرك، ديوان : 306.

(21) نفسه: 126، 156، 157.

(22) ابن فركون، ديوانه: 271.

(23) ابن زمرك، ديوانه: 154-155.

(24) ابن الخطيب، ديوانه: 156-157.

(25) المقري، نفح الطيب: 507.

(26) ابن الجيابن ديوانه: 378.

(27) نفسه: 451.

(28) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: 132، 133.

(29) ابن زمرك، ديوانه: 306.

(30) نفسه: 125.

(31) نفسه: 128.

(32) نفسه: 131.

قائمة المصادروالمراجع:

- **القرآن الكريم**

أولًا: المراجع باللغة العربية

1) ابن الجياب، علي بن محمد بن سليمان، ديوانه، تحقيق: فوزي عيسى، د.ن، القاهرة، 2014م.
2) ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد، ديوانه، تحقيق: محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1989م.
3) ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.
4) ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.
5) ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق: السعدية فاغية، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء، 1989م.
6) ابن زمرك، ديوانه، تحقيق: محمد النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
7) عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام بالأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.
8) ابن فركون، أبو الحسين، ديوانه، تحقيق: محمد ابن شريفة، الأكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1987م.
9) محمود، إبراهيم وجيه، مدخل علم النفس، دار المعارف، القاهرة، 1980م.
10) المقري، أحمد بن محمد بن أحمد، نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م.

Arabic References

1) Ibn al-Ǧayyāb, ʿAlī Ibn Muḥammad Ibn Sulaymān, Dīwānuh, Ed. Fawzī ʿĪsá, D. N, al-Qāhirah, 2014.

2) Ibn al-Ḫaṭīb, Muḥammad Ibn ʿAbdallāh Ibn Saʿīd, Dīwānuh, Ed. Muḥammad Miftāḥ, Dār al-Ṭaqāfah, al-Dār al-Bayḍāʾ, 1989.
3) Ibn al-Ḫaṭīb, Muḥammad Ibn ʿAbdallāh Ibn Saʿīd, Rayḥānah al-Kitāb & Naǧʿat al-Muntāb, Ed. Muḥammad ʿAbdallāh ʿInān, Maktabat al-Ḫānǧī, al-Qāhirah, 1980.
4) Ibn al-Ḫaṭīb, Muḥammad Ibn ʿAbdallāh Ibn Saʿīd, Nufāḍat al-Ǧirāb fī ʿIlalālat al-Iġtirāb, Ed. ʾAḥmad Muḫtār al-ʿAbbādī, Dār al-Našr al-Maġribīyah, al-Dār al-Bayḍāʾ, 1985.
5) Ibn al-Ḫaṭīb, Muḥammad Ibn ʿAbdallāh Ibn Saʿīd, Nufāḍat al-Ǧirāb fī ʿIlālah al-Iġtirāb, Ed. al-Saʿdīyah Fāġīyah, Maṭbaʿat al-Ǧadīdah, al-Dār al-Bayḍāʾ, 1989.
6) Ibn Zamrak, Dīwānuh, Ed. Muḥammad al-Nayfar, Dār al-Ġarb al-ʾIslāmī, Bayrūt, 1997.
7) ʿInān, Muḥammad ʿAbdallāh, Dawlat al-ʾIslām bi-al-ʾAndalus, Maktabat al-Ḫānǧī, al-Qāhirah, 1997.
8) Ibn Furkūn, ʾAbū al-Ḥusayn, Dīwānuh, Ed. Muḥammad Ibn Šarīfah, al-ʾAkādīmīyah al-Mamlakah al-Maġribīyah, al-Maġrib, 1987.
9) Maḥmūd, ʾIbrāhīm Waǧīh, Madḫal ʿIlm al-Nafs, Dār al-Maʿārif, al-Qāhirah, 1980.
10) al-Muqrī, ʾAḥmad Ibn Muḥammad Ibn ʾAḥmad, Nafḥ al-Ṭayyib min Ġuṣn al-ʾAndalus al-Raṭīb, Ed. ʾIḥsān ʿAbbās, Dār Ṣādir, Bayrūt, 1988.

ثانيًا: المراجع باللغة الأجنبية

1) BARCLAY, Katie. «Introduction: Emotions and Change», en *Emotions: History, Culture, Society,* Vol. 1 No. 2, 2017.
2) BARRAGÁN ESTRADA, Ahmad Ramsés y MORALES MARTÍNEZ, Cinthya Itzel. «Psicología de las emociones positivas: generalidades y beneficios», en *Enseñanza e investigación en psicología*, Vol. 19, núm. 1, enero-junio, 2014.
3) LADERO QUESADA, Miguel Ángel. *Granada. Historia de un país islámico (1232-1571),* Madrid, Gredos, 1989.

4) PLAMPER, Jan. *The History of Emotions: An Introduction*, Oxford, Oxford University Press, 2015.

5) PUERTA VÍLCHEZ, José Miguel. *Leer la Alhambra*, Granada, Patronato de la Alhambra, 2010.

6) SAMSÓ, Julio. *Astrometeorología y astronomía medievales*, U. De Barcelona, 2008.

7) REDDY, William M. *The Navigation of Feeling: A Framework for the History of Emotions*, Cambridge, Cambridge University Press, 2001.

8) VIDAL, Francisco. «El asesinato político en al-Andalus: la muerte violenta del emir en la dinastía nazarí (s. XIV)», en M. Fierro (ed.), *De muerte violenta: política, religión y violencia en al-Andalus. Estudios Onomástico-Biográficos de al-Andalus, XIV*, Madrid, Editorial del Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2004.